المحاضرة الثانية: مصطلحات ومفاهيم

للمدن أهمية ومكانة متميزة في تاريخ الحضارة الإنسانية، إذ أنّ كلا منها يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعشون متقاربين، فتنشأ بينهم علاقات اجتماعية متعددة، ويتطلب تجمعهم نظما إدارية تؤمن النظام، والاستقرار، والأمن، وتسير نحو التقدم والازدهار، وتجمع العدد الكبير من النّاس للعيش معا في مكان واحد يبرر بشكل واضح حاجاتهم المادية، ويتطلب تخصص في العمل لتيسير توفر الحاجات الواسعة التي تؤمن مسكنهم، ومآكلهم، وملبسهم، والمتطلبات الحياتية الأخرى التي تزداد أو تنقص تبعا لطموحات السكان، وأهوائهم، وأذواقهم، ومدى توافر الإمكانيات المادية لتحقيقها.

إنّ اجتماع العدد الكبير من النّاس في المكان الواحد ييسر إنارة التفكير، وتعدد الآراء وتبادلها، ومن ثم تنمية الفكر بمعناه الأشمل، فإذا رافق ذلك النمو الكتابة فإنّ هذه الأفكار تسجل، وتحفظ لنشرها على ميادين مختلفة من السعة بين المواطنين، أو الأجيال التالية، ومن هنا كانت للمدن مكانة خاصة في نمو الحركة الفكرية، وتوسع آفاقها، وانتشارها بين أهل المجموعات البشرية والتجمعات السكنية الطامحة في الاستفادة من الإنتاج الحضاري.

وعلى هذا المنهاج سارت المدن الإسلامية في العصر الوسيط، متخذة من "المدينة المنورة" منذ العصر النبوي وعهد الخلفاء الراشدين أسلوبا لتخطيطها، ومركزا هاما لاستنباط الأحكام الشرعية في تسيير مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية، والفكرية، وهذا ما سوف نتطرق إليه في محاور هذا المقياس.

1-تعريفات هامة لا بد منها:

لقد عرف العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام المراكز الحضارية و المدن، وفي القرآن الكريم تعابير لأنواع متعددة من التجمعات البشرية الكبيرة، ومنها المدينة التي ذكرت سبع عشرة مرة،كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ .. إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1]والبلدة﴿ .. أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ...﴾[2]والقرية ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ...﴾[3] وحاضرة البحر ﴿ ...وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾[4] بالإضافة إلى أسماء عدد من الأماكن مثل مصر﴿ وَقَالَ الذِي اشْتَرَىهُ مِن مِّصْرَ..

1 - سورة الأعراف، الآية 123.
2 - سورة النمل، الآية 91.
3 - سورة الأعراف، الآية 101.
4 - سورة الأعراف، الآية 163.

﴾[5]وبابل﴿ .. وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ... ﴾[6]وارم﴿ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ ﴾[7]، وبكة﴿ إِنَّ أَوَلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ...﴾[8]، وذكر سبحانه وتعالى كذلك مصطلحات عربية عن نظم سياسية وأحوال حضارية لا تقوم إلا في مجتمعات مركبة، فقد ذكر البدو والبادية في آيات قليلة كقوله سبحان وتعالى: ﴿ جَاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْوِ.. ﴾[9].

إنّ أنظمة سياسية والحضارية لا يمكنها أن تزدهر إلا في ظل مدن متقدمة النمو، وقد وردت هذه التعابير ضمن سياق يظهر أنها كانت مألوفة عند العرب أو معروفة فيهم، إضافة إلى ما هم مطلعون عليه من نظم الأخرى بالسماع أو عن طريق المعلومات المستمدة من علاقاتهم التجارية.

- القرية:

القرية هي المصر الجامع وكل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قرارا، وتقع على المدن وغيرها، ويقول ابن سيده: " القَرية والقِرية لغتان المصر الجامع"، وفي التهذيب: " المكسورة يمانية، ومن تم اجتمعوا في جمعها على القرى على لغة من يقول كسوة وكساً، وقيل: هي القرية، بفتح القاف لا غير، قال: وكسر القاف خطأ، وجمعها قرىً، جاءت ناذرة ". ويقول ابن السكيت: "ما كان من جمع فَعْلَةٍ بفتح الفاء معتلا من الياء والواو على فعال كان ممدودا مثل رَكْوة وركاء وشكوة وشكاء وقشوة وقشاء، قال: لم في شيء من جميع هذا القصرُ إلا كوَّة وكوىً وقرية وقرى، جاءنا على غير قياس." وقال الجوهري: " القرية معروفة، والجمع قرى على غير قياس وفي الحديث: **انّ نبيا من الأنبياء أمر بقرية النمل فأحرقت**. وهي مسكنها وبيتها، والجمع قرىً، والقرية من المساكن و الأبنية و الضِّياع وقد تطلق على المدن".وفي الحديث: " **أمرت بقرية تأكل القرى هي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم**"، ومعنى أكلها القرى ما يفتح عل أيدي أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها، وقوله تعالى:﴿..وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الّتِي كُنَا فَيهَا ﴾[10] قال سيبويه: " إنّما جاءت على اتساع الكلام والاختصار، وإنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا "، قال ابن جني: " في هذا ثلاثة معان: الاتساع و التشبيه والتوكيد، أما الاتساع فإنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في حقيقة سؤاله، ألا تراك تقول وكم من قرية مسؤولة، وتقول القرى وتسألك كقولك أنت وشأنك فهذا ونحوه اتساع، وأما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ومؤالفا لها، وأما التأكيد فلأنه في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته

---

5 - سورة يوسف، الآية 21.
6 - سورة البقرة، الآية 102.
7 - سورة الفجر، الآية 7.
8 - سورة آل عمران، الآية 96.
9 - سورة يوسف، الآية 100.
10 - سورة يوسف، الآية 100.

الإجابة. والجمع قرى، وأمّ القرى هي مكة شرفها الله تعالى، لأن أهل القرى يؤمّونها أي يقصدونها".

لقد حدد الرحالة والجغرافيون مسميات للقرى على حجمها، فاستعمل الحميري مصطلح القرية الجامعة عند وصفه لقرية الأبواء بقوله: " قرية جامعة بين مكّة والمدينة شرفها الله تعالى وسطا من المسافة، ومعنى الأبواء أخلاط من النّاس...". ويمكن استنتاج من كلام "الحميري" أنّ القرية الجامعة هي التي تجمع مجموعات بشرية أو عدد من القبائل يتقاسمون نفس المساحة ويجتمعون على حرفة واحدة، وتربطهم مصلحة مشتركة، كما يصف مدينة "أجرسيف"[11] قبل تمصيرها بقوله: "... أجرسيف قرية كبيرة على النهر المذكور حتى خرج الملثمون من الصحراء فنزلوها ومدنوها وبنوا عليها سورا من الطوب...". وجعلوا كذلك القرية الكبيرة كالمدينة، أو القرية كالبلدة". ولا شك أن هذه التسميات والتصنيفات مرتبطة برؤية واضحة تميز كل منها عن الأخرى وفق معايير حضرية محددة.

ومما أفردناه سابقا يمكن أن استنتج أنّ القرية تعتبر بمثابة الربض[12]، وهي تجمعات سكانية تنسب لقبيلة معينة، أو تكون خليط من المجموعات البشرية يجمعها فكر معين أو هدف اقتصادي أو حرفي واحد، وهي دعما اقتصاديا وحربيا للمدينة.

- المدينة:

نسب اللغويون كلمة مدينة إلى كلمة "دين"، وأنّ لهذه الكلمة بهذا المعنى أصلا في الآرامية والعربية، أي أنها ذات أصل سامي، عرفت المدينة عند الأكاديين والأشوريين بالدين أي القانون، كما أن الديان يقصد بها في اللغة الآرامية و العبرية القاضي، وإضافة إلى ذلك فإن مصدرها في الآرامية مدينتنا وتعني القضاء، وتوافق هذه التفسيرات ما ورد في القرآن[13]، وفي السنة النبوية، وما أشارت إليه بعض المعاجم العربية، حيث كل المواضع التي أطلق عليها لفظ المدينة في القرآن كان عليها حاكم، أو ملك، وفيها على وجه التحقيق الصيغ القضائية و الدينية، والإدارية، والسياسية، فجاء تميز المدينة عن القرية في القرآن الكريم على أساس سمة التقاضي التي أشار إليها اللفظ الآرامي سابقا.

---

11 - مدينة تقع على نهر ملوية بالمغرب الأقصى.

12 - الرَّبض ما حول المدينة، وقيل هو الفضاء حول المدينة. للمزيد من التفاصيل أنظر: - ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص 30.

13 - وقد ورد مصطلح المدينة في القرآن الكريم جمعا أو مفردة 17 مرة. للمزيد من التفاصيل أنظر: سورة الأعراف الآية111، 123. سورة التوبة الآية 101، 120. سورة يوسف الآية 30. سورة الحجر الآية 67. سورة الكهف الآية 19، 82. سورة الشعراء الآية 36، 53. سورة النمل الآية 48. سورة القصص الآية 15، 18، 20. سورة الأحزاب الآية 60. سورة ياسين الآية 20 . سورة المنافقون الآية 8.

ويقول ابن منظور: "...مدن بالمكان: أقام به، فعلٌ مُمات، ومنه المدينة، وهي فعيلة، وتجمع على المدائن، بالهمز، ومدْنٍ والمدن بالتخفيف والتثقيل، وفيه قول آخر: أنه مفعلة من دنتُ أي ملكتُ، قال ابن بري: لو كانت الميم في المدينة زائدة لم يجز جمعها على المدنٍ. وفلان مدّن المدائن: كما يقال مصّر الأمصار. قال وسئل أبو عليّ الفسوي عن همزة مدائن فقال: فيه قولان، من جعله فعلية من قولك مدنَ بالمكان أي أقام به همزه، ومن جعله مفعِلة من قولك دين أي ملك لم يهمزه كما لا يهمز معايش...."، وحدد ابن منظور كذلك الكيان المادي والاجتماعي للمدينة بعد أن ذكر التعريف اللغوي بقوله: "والمدينة: الحصن يبنى في أصطمّة الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمّتها فهي مدينة، والنسبة إليها مديني، والجمع مدائن ومدنٌ. قال "ابن سيده": ومن هنا قال أبو الحسن فيما حكاه الفارسي أنّ المدينة فعلية. ويقول الفراة وغيره: المدينة فعلية، تهمز في الفعائل لأن الياء زائدة، ولا تهمز ياء المعايش لأن الياء أصلية. والمدينة: اسم "مدينة" سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاصة غلبت عليها تفخيما لها، شرّفها الله وصانها، وإذا نسبت إلى المدينة فالرجل والثوب مدنيّ، والطير ونحوه مديني، لا يقال غير ذلك. قال سيبويه: فأما قولهم مدائني فإنهم جعلوا هذا البناء اسما للبلد، وحمامة مدينيّة والجارية مدينيّة. ويقال للرجل العالم بالأمر الفطنِ: هو ابن بجدتِها وابن مدينتها وابن بلدتها وابن بعثطها وابن سُرسورها.". وعلى هذا مذهب أضاف الفيروزآبادي بقوله: "...والمدينة: الأمة وستّة عشر بلدا، ومدن المدائن تمدينا: مصّرها. و"مدين": قرية شعيب عليه السّلام، والنِّسبة إلى مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم: مدنيٌ، وإلى مدينة المنصور، وأصفهان وغيرهما..ومدائن: مدينة كسرى قرب بغداد، سميت لكبرها...".

ويقول المقدسي في تعريفه للمدينة: "...أنّه كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه[14]...". وقد ذهب في تعريفه هذا أنّ المدينة تجع مجموعات بشرية، ويتقاضى فيها الناس بوجود النظام ويمثله الأمير أو حاكم المدينة والذي يقوم كذلك بجمع الخراج من أهلها. ومن خلال هذا التعريف يمكن أن أشير إلى أنّ المدينة ليست بالضرورة عاصمة لدولة، ولكنها تنتمي وتعترف بالسلطة المركزية بالعاصمة، وعلى هذا الأساس كانت المدن الإسلامية تابعة لعاصمة الدول، وبها كذلك تقام صلاة الجمعة دون غيرها من التجمعات السكنية التي لا ترق إلى مرتبة المدينة هذا ما ذهب إليه فقهاء القرن الثاني للهجرة تأسيا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما يعرفها الفارابي بقوله: "...فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها، التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة..."، كما شبهها بالبدن الصحيح الذي تكون أعضاؤه سليمة تقوم بوظائفها المنوطة بها على أحسن حال وذلك بقوله: "...والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه كلها على تميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه...".

14 - أي سواده. للمزيد من التفاصيل أنظر ابن منظور، المصدر السابق، ج4، ص102.

من خلال كتب الرحالة والجغرافيين يمكن للباحث أن يستشف من وصفهم للمدن أنهم ربطوها بالمسجد الجامع والسور الذي يحيط بها، ويبدو أنّهما اتخذا كمعيارين لتحديد الفرق بين المدينة والقرية، فمثلا يصف الحميري مدينة أجرسيف بأنها مدينة في إقليم تلمسان هذا في القرن الخامس للهجرة، ثم يقول: "كانت قرية كبيرة"، ويبدو أنّ هذا التحول من قرية إلى مدينة كان بدخول يوسف بن تاشفين إليها وضربه لسور عليها، وأمره ببناء مسجد جامع بها. أما حسن الوزان فربط حجم المدن والفرق بين القرية والمدينة بعدد السكان، بالإضافة إلى أن المدن تتخذ دار للسلطان أو مقرا لإمارة، حيث يقول في وصفه لمدينة أرشقول: " أرشكول مدينة كبيرة...كانت مدينة في غاية العمران والحضارة، دار إمارة عم إدريس مؤسس مدينة فاس..."، ويصف مدينة تلمسان وكيفية تحولها من مدينة صغيرة إلى مدينة كبيرة و عاصمة للملكة قوية دامت أكثر من أربعة قرون: " تلمسان مدينة كبيرة، وهي عاصمة الملكة...وكل ما يقال أنها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول...وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين وبلغت حقا درجة عالية من الازدهار..."، وقد جمع محمد عبد الستار عثمان من خلال المصادر التاريخية المسميات والمصطلحات المستعملة في التعريف بالأماكن ومواقع التجمعات السكنية بقوله: "...وتعكس مسميات المدن وأوصافها تصنيفا محددا للمدن، فقد استخدموا مصطلح المدينة ومدينة كبيرة، ومدينة وسط، ومدينة صغيرة، ومدينة وكوره في آن واحد، ومدينة عظيمة وولاية في آن واحد، وقصبة ومدينة عامرة وهي القصبة، أو ناحية وهي القصبة، أو مدينة وقصبة أو قصبة وكوره، أو بلد و قصبة في الوقت نفسه".

- المِصرُ:

يقول ابن منظور في تعريفه للمصطلح: " الحد في كل شيء، وقيل: المصر الحد في الأرض خاصة، ويقول الجوهري: مصر هي المدينة المعروفة، تذكر وتؤنث، ويقول ابن السراج: والمصر واحد من الأمصار. والمصر: الكورة، والجمع أمصار. ومصّروا الموضع: جعلوه مصراً. وتمصّر المكان: صار مصرا.ومصر: مدينة بعينها، سميت كذلك لتمصُّرها، وقد زعموا أن الذي بناها هو المصر بن نوح، عليه السلام، قال ابن سيده: ولا أدري كيف ذلك، وهي تُصرفُ ولا تُصرفُ. قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿ ...اْدْخُلُواْ مِصْرَ.....﴾[15]، قال: بلغنا أنّه يريد مصر بعينها. في التهذيب قوله تعالى:﴿...اْدْخُلُواْ مِصْرَ ...﴾، قال أبو إسحاق: الأكثر في القراءة إثبات الألف، قال: وفيها وجهان جائزان، يراد بها مصر من الأمصار لأنهم كانوا في تيه، قال: وجائز أن يكون أراد مصر بعينها فجعل مصراً أسما للبلد فصرف لأنه مذكر، ومن قرأ مصر بغير ألف أراد مصر بعينها كما قال الله تعالى في الآية السابقة، ولم يصرف لأنه اسم المدينة، فهو مذكر سمي به مؤنث. وقال "الليث": المصر في كلام العرب كل كُورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيءُ

15 - سورة يوسف، الآية 99.

والصدقات من غير مؤامرة للخليفة. وكان عمر رضي الله عنه مصّر الأمصار منها البصرة والكوفة. وقال الجوهري: فلان مصّر الأمصار كما يقال مدّن المدن، وحمرٌ مصارٍ. ومصاري: جمع مصري، عن كراع، قوله:
وأَدَمَتْ خبزيَ من صُيَيْرٍ من صير مصرين أو البُحير اراه إنما عنى مصر هذه المشهورة فاضطر إليها فجمعها على حد سنين، قال ابن سيده: وإنّما قلت إنه أراد مصر لأنّ هذا الصير قلما يوجد إلا بها وليس من مآكل العرب، قال وقد يجوز أن يكون هذا الشاعر غلط بمصر فقال مصرين، وذلك لأنه كان بعيدا من الأرياف كمصر وغيرها، وغلط العرب الأقحاح الجفاء في مثل هذا كثير، وقد رواه بعضهم من صير مصرين كأنه المصرين فحذف اللام.

والمصران: الكوفة والبصرة، قال ابن الأعرابي: قيل لهما المصران لأن عمر رضي الله عنه قال: لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم، مصِّروها أي صيروها مصرا بين البحر وبيني أي حدا. والمصر: الحاجز بين الشيئين. وفي حديث مواقيت الحج: لما فتح هذان المصران، المصر: البلد، ويريد بهما الكوفة والبصرة. والمصر: الطين الأحمر. وثوب ممصر: مصبوغ بالطين الأحمر أو بحمرة خفيفة.".

ويقول الفيروزبادي: "...والمصر بالكسر: الحاجز بين الشيئين، كالماصر، والحدّ بين الأرضَيْنِ، والوعاء والكورة، والطين الأحمر...ومصروا المكان تمصيرا: جعلوه مصرا فتمصّر. ومصر: المدينة المعروفة، سمِّيت لتمصّرها...".

ويقول الماوردي في تعريفه للأمصار: " ...أما الأمصار فهي الأوطان الجامعة، والمقصود بها خمسة أمور: أحدهما: أن يستوطنها أهلها طلبا في السكون والدعة. والثاني: حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة. والثالث: صيانة الحريم والحرم من انتهاك ومذلة. والرابع: التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة. والخامس: التعرض للكسب وطلب والمادة. فإن عدم فيها أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار وهي منزل قيعة ودمار. قال الزبير بن العوام رضي الله عنه، سمعت رسول الله يقول: " **إنّ البلاد بلاد الله، فحيث ما وجدت خيرا فاحمد الله وأقم**".

- القصر:

يعرف القصر لغويا بأنه هو المنزل، وقيل كل بيت من حجر قرشية، وسمي كذلك لأنه تقصر فيه الحرم أو تحبس، مصداقا لقوله تعالى:﴿ حُورٌ مَّقْصُورَات فِي الخِيَامِ ﴾[16]، و جمع قصر قصور مثلما جاء ذكره في القرآن الكريم حيث يقول عز وجل:﴿ ...وَبِئْرٍ

16- سورة الرحمن الآية 72.

مُّعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَّشِيدٍ)[17]، وبصيغة الجمع في آية أخرى حيث يقول الله تعالى:﴿ ..تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا..)[18]، ﴿ ....وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورَا ﴾.

يقول الفيروزآبادي: "... والقصر خلاف المدِّ، واختلاط الظّلام، والحبسُ، والحطب الجزلُ، والمنزل، أو كل بيت من حجر، وعلمٌ لسبعة وخمسين موضعاً، ما بين مدينة وقرية وحصن ودار، أعجبها قصر بهران جور من حجر واحد قرب همذان." ويقترب هذا المفهوم من المصطلح الوارد، والمتداول في المصادر التاريخية، حيث يقصد بالقصر مقر الخليفة أو الحاكم وأفراد عائلته وخدمه.

ويختلف مفهوم القصر في المناطق الصحراوية اختلافا كلي عن المعنى السابق، فهو عبارة عن قرية محصنة، أو بالأحرى هو عبارة عن تكتلات سكنية متراصة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة. يحيط بهذه التكتلات أحيانا سور سميك تتخلله مزاغل ومدعم بأبراج، وأحيانا تخلوا بتاتا من مثل هذه العناصر الدفاعية، ولكن تعوض بجدران البيوت الخارجية لتشكل في النهاية ما يشبه السور يحيط بكافة أرجائها، ويدعم عادة من الخارج بواسطة دعامات نصف هرمية الشكل مثل قصور واد ريغ بالوادي، وقصر تماسين بتقرت، وتعد هذه الطريقة بالنسبة للسكان المحلين بمثابة سور حقيقي نستشفه من خلال الكلمات المتداولة إلى يومنا هذا كقولهم: " من وراء السور ".

17- سورة الحج الآية 45.

18- سورة الأعراف الآية 74.